الجلسة الثانية

منهجية أبو الشعر: في كتابة التاريخ

منهجية أبو الشعر في كتابة التاريخ

د . عليان الجالودي *

يلحظ المتتبع لإنتاج الدكتورة هند أبو الشعر البحثي ما بين كتب وبحوث ودراسات متخصصة، زخمًا كبيرًا في البحث والتأليف، ما يذكرنا بالرعيل الأول من علماء الأمة الأفذاذ، الذين قضوا سني عمرهم في البحث والتأليف، كما نلمس تعدد جوانب اهتماماتها ما بين الأدب والفن والتاريخ، إلا أن اشتغالها بالتاريخ، درسًا وتدريسًا وبحثًا، أعطاها هويتها المميزة كمؤرخة. ويتسم إنتاجها في حقل التاريخ بسمة التنوع، بين بحوث في التاريخ الإسلامي، وفي التاريخ الحديث والمعاصر، وهذا يعود إلى تنوع مشارب تكوينها؛ إذ تتلمذت أستاذتنا على يد هرمين من أهرام الكتابة التاريخية، المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري الذي أشرف على

* أستاذ التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت.

أطروحتها في الماجستير، وعلى يديه تشربت منهجية البحث في التاريخ الإسلامي، وتحولت في الدكتوراه إلى حقل التاريخ الحديث والمعاصر، وتتلمذت على يد الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، شيخ المؤرخين الأردنيين، ورائد المدرسة الأردنية في البحث في التاريخ العثماني عمومًا، وتاريخ العرب وتاريخ الأردن الحديث خصوصًا.

وحددت أطروحة الدكتوراه التي أعدتها في الجامعة الأردنية، تحت إشراف الأستاذ البخيت والموسومة بـ «إربد وجوارها: ناحية بني عبيد»، هويتها البحثية، وكانت اللبنة الأولى من لبنات تكوينها في التاريخ الحديث والمعاصر؛ إذ يلاحظ أن معظم إنتاجها، ما بعد الدكتوراه، انصب حول تاريخ الأردن الحديث والمعاصر، إذ تعد بحق من بين أكثر المؤرخين الأردنيين المعاصرين إنتاجًا، سواء كان ذلك في حقل الكتب أو البحوث وأعمال التحرير، ناهيك بريادتها في ما أنجزته من دراسات حول البلدانيات الأردنية، وتوظيف محتوى السجلات، والصحافة الذي أتقنته، وتميزت فيه بين أقرانها من المؤرخين.

وما يميز أعمال المؤرخة هند أبو الشعر ليس الكم بمقدار الكيف، فهي تعد، في بحوثها ومؤلفاتها، رائدة في توظيف محتوى المادة الوثائقية، سواء كانت سجلات محاكم شرعية أو سجلات طابو أو سجلات تسوية، وسجلات نفوس وأوراق ومذكرات شخصية، ووثائق الشركات، ووثائق وأوراق البلديات، ناهيك عن توظيف الصحافة المعاصرة وتحليل محتواها وتوظيفها في بحوثها ودراساتها عن البلدانيات الأردنية التي تصدت لدراستها (الصريح، حواره، الحصن، مادبا، السلط، الزرقاء، الشوبك، معان)، ودراسات حول تاريخ الأردن عمومًا، ودراساتها حول الصحافة والإعلام والشخصيات الأردنية من الرعيل الأول، وقدمت دراسات تتسم بعمق المنهجية، والقدرة الفذة على التحليل بامتلاكها ناصية المنهج العلمي، والقدرة في تحليل محتوى المادة الوثائقية، ناهيك عن أسلوبها ولغتها الأدبية التي

أضفت على بحوثها سلاسة وجمالية في اللغة والأسلوب، إذ يشعر القارئ، عندما يقرأ في مؤلفاتها وبحوثها، أنه أمام نص أدبي، يشد إليه القارئ، ويبعد به عن السأم الذي ينتاب القارئ عادة في تعامله مع المؤلفات والبحوث الأكاديمية.

لقد زاملت الدكتورة سنوات طويلة خلال عملنا سوية في قسم التاريخ في جامعة آل البيت منذ مرحلة التأسيس، وأدرك عظم المنجز الذي تحقق على يديها، وما قدمته للجامعة، ودورها في تنظيم الندوات والمؤتمرات، وفي النهوض بصحيفة الشورى الطلابية، وبمجلة البيان الثقافية التي اقترنت بها وتوقفت، للأسف، بعد مغادرتها الجامعة.

وأعي تمامًا ما نهضت به من جهود خلال إدارتها قسم التاريخ، وعمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وما تحلت به من قدرات فذة في الإدارة، وهو منجز آخر ينضاف إلى مجمل جوانب شخصيتها، ولا يمكن إغفال هند الأكاديمية المبدعة، وتجربتها الثرة في التدريس، سواء لطلبة البكالوريوس أو الماجستير، وحدبها على طلبتها، وصرامة المنهج الذي غرسته فيهم، وبصماتها العلمية والمنهجية على رسائل الماجستير التي أشرفت عليها أو ناقشتها.

ويصعب في الحقيقة، في هذه العجالة، أن يحيط المرء بمجمل إنتاج أستاذتنا وزميلتنا العزيزة وبجوانب شخصيها، لكنها مجرد إضاءات أحببت أن أشير إليها ولو إشارات عابرة، وأعتقد أن الزملاء سيغنون كثيرًا جوانب من شخصية هند الأديبة والقاصة والرسامة التشكيلية والمؤرخة، وجوانب إنتاجها الثرّ.

سأنتقل إلى الموضوع الرئيس لهذه الورقة، وهو تسليط الضوء على منجز مهم تصدت له هند أبو الشعر، الذي يمثل نضج تجربتها البحثية، كما يترجم حصيلة ما أنتجته من دراسات وأبحاث، كما وضعت فيه خلاصة اشتغالها مع المصادر الوثائقية وأعمال التحرير لما يربو على عشرين مجلدًا من الوثائق الهاشمية التي نهضت بتحريرها وإعدادها للنشر، إلى جانب الأستاذ

الدكتور محمد عدنان البخيت، وتنوع موضوعات هذه المجلدات الوثائقية، وما حوته من وثائق رسمية تناولت جوانب متعددة من تاريخ إمارة شرق الأردن، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلاقتها مع محيطها العربي، ومع دول العالم، التي أتاحت آفاقًا واسعة أمام الباحثين والمهتمين، وطلبة الدراسات العليا؛ لتوظيفها في أبحاثهم ودراساتهم الحالية والمستقبلية.

ومهمة الدكتورة في هذا المجال لا تنحصر بنشر هذه المادة الوثائقية الثرة وحسب، بل في ما قدمته من دراسات في بحوثها ومؤلفاتها المنصبة على هذه الوثائق، أيضًا، إذ تعد تلك الدراسات نبراسًا يضيء الطريق أمام الباحثين عن كيفية التعامل مع هذا المصدر الوثائقي، وكيفية توظيفه في دراساتهم.

موسوعة تاريخ الأردن في عصر الإمارة (١٩٢١-١٩٤٦م)

عكفت الدكتورة هند أبو الشعر، في الأعوام الأخيرة، على التصدي لعمل علمي يتمثل بإعداد عمل موسوعي عن تاريخ الأردن مؤلفًا من مجلدات عدة، منها ما صدر، ومنها ما هو قيد الطبع، ومنها ما هو قيد الإعداد.

* **المجلد الأول**: يتناول الإدارة والتأسيس (١٩٢١-١٩٤٦م).
* **المجلد الثاني**: القناصل والحياة الدبلوماسية في عهد الإمارة.
* **المجلد الثالث**: الحياة الاجتماعية، وهو مؤلف من قسمين:
  - **القسم الأول**: السكان والتعليم.
  - **القسم الثاني**: الطب والأطباء والأحوال الصحية والبلديات والعمران.
* **المجلد الرابع**: الصحافة والثقافة والمرأة.

* **المجلد الخامس**: الحياة الاقتصادية.

وصدر المجلد الأول من هذا العمل الموسوعي في هذا العام (٢٠٢١)، وتصدت لنشره، مشكورة، جامعة فيلادلفيا، وعلمت من الدكتورة هند أن المجلدات؛ الثاني والثالث والرابع؛ قيد النشر، في حين أن المجلد المتعلق بالحياة الاقتصادية يحتاج سنتين ليرى النور، متعها المولى بموفور الصحة والعافية والعمر المديد؛ لإنجاز ما تصبو وما نصبو إليه جميعًا، خدمة للأردن العزيز وتاريخه وتراثه.

ملاحظاتي الأولية على المجلد الأول الذي حمل عنوان: «الإدارة والتأسيس»؛ أي تاريخ الإمارة منذ التأسيس العام ١٩٢١م، وتتبع جوانب تطور الحياة الإدارية، والتشريعية، وتطور المؤسسات الإدارية.

- إن الباحثة، بهذا العمل الموسوعي الأول من نوعه في المكتبة التاريخية الأردنية، سجلت اسمها في سجل الريادة في المدرسة التاريخية الأردنية بأحرف من نور.
- وفي إضاءتها في تقديمها للكتاب، استدركت بأن هذا العمل لا ينطبق عليه مفهوم الموسوعات الذي نألفه، وإنما قصدت بذلك أن يكون موسوعة متكاملة للتأريخ لهذه المرحلة من تاريخنا الحديث.

- اشتمل المجلد الأول على محاور رئيسة على شكل أبواب:

* **الباب الأول**: مرحلة التأسيس ١٩٢١-١٩٢٣م، تناولت تحليل مكونات الإدارة والقيادات السياسية والإدارية، كما تطرقت للمصادر التي يمكن من خلالها للدارس تكوين صورة شاملة عن هذه المرحلة، واستقت مادتها في هذا الباب، معتمدة على تلك المصادر الوثائقية، من سجلات محاكم شرعية، ووثائق المكتبة الوطنية، ومجموعة الوثائق الهاشمية، وأوراق وسجلات البلديات، وأحاطت في هذا الباب بتعامل الإدارة والحكومات والموازنات والجوانب القضائية.

* **الباب الثاني**: وخصصته للحديث عن الإدارة بين العامين ١٩٢٣-١٩٤٦م، وتناولت كثيرًا من التفصيلات حول تطور المؤسسات الإدارية والتنظيمات الإدارية والعمرانية... إلخ.
* **الباب الثالث**: خصص لجوانب التشريع والقانون الأساسي والمجالس التشريعية، وقانون الانتخاب للمجلس التشريعي الصادر العام ١٩٢٨م.
* **الباب الرابع**: الإدارة ما بين العامين ١٩٣٠-١٩٥١م، واستكملت فيه حديثها عن الإدارة، والتركيز بشكل خاص على السلطة التنفيذية، والإدارة الأردنية في فلسطين بين العامين ١٩٤٨-١٩٥١م، وغيرها من الجوانب التفصيلية.

وسأتناول بعجالة بعض الملاحظات العامة:

١. هذا العمل الموسوعي يعكس نضج تجربة الباحثة، وقد وظفت فيه نتائج دراساتها السابقة، ناهيك بالمصادر التي أسهمت في الكشف عنها، ودراستها عبر مسيرتها البحثية من سجلات طابو ومالية، ونفوس، والصحافة المعاصرة، وسجلات المحاكم الشرعية، وسجلات المدارس والشركات، والمذكرات، وكان اعتمادها بشكل رئيس، في معظم صفحات هذا المجلد، على الجريدة الرسمية، ووثائق الديوان الملكي التي ساهمت بإعدادها وتحريرها تحت مسمى الوثائق الهاشمية، كما أفادت من الوثائق الحكومية المحفوظة في المكتبة الوطنية، وما أضافته من دراسات غير مسبوقة عن صحف (القبلة)، و(العاصمة)، و(مجلة الرائد).

٢. حوى هذا المجلد على مادة ثرة قل أن نجدها في أي عمل أكاديمي أو غير أكاديمي عن عصر الإمارة، وهي لم تكتف بإيراد تلك المواد، بل أغنتها بالدراسة والتحليل المنهجي المعمق، وقدمتها على طبق من فضة للقارئ والباحث.

٣. من حيث المحتوى المنهجي، سلطت الدكتورة هند الضوء على جوانب لم يلتفت إليها الباحثون والدارسون من قبل، منها: تحليل مكونات شخصية المغفور له- بإذن الله- الملك (الأمير) المؤسس عبدالله بن الحسين، وحللت بعمق المرتكزات التي استندت إليها شرعيته، وناقشت بعمق الخلفيات الفكرية لنجاح تجربته، من بينها نسبه الشريف، وفكر النهضة (الثورة) العربية، ومشاركته الفعالة في أحداث النهضة، سواء كانت مشاركة سياسية أو عسكرية، وسعة اطلاعه على العلاقات الدولية، ومصالح الدول العظمى آنذاك وأطماعها في البلاد العربية، ناهيك بثقافته القانونية التي تستند إلى مشاركته في مجلس المبعوثان العثماني، وثقافته اللغوية والأدبية والتاريخية، وملكته الشعرية، فضلًا عن ثقافته البدوية التي سهلت عليه إقامة دولة في محيط متلاطم، ودمج مكونات المجتمع الأردني آنذاك من فلاحين وبدو وجماعات مدنية، وصهرهم في دولة واحدة.

٤. كما ناقشت حسن اختيار الأمير عبدالله، خلال مرحلة التأسيس، للكفاءات الإدارية التي تحملت مسؤولية الإدارة؛ إذ ترجمت مؤسسات الإمارة الناشئة آنذاك فلسفة الثورة العربية الكبرى في الإدارة والجيش، وما يتميز به المغفور له الملك عبدالله من حنكة وسعة حلم ودهاء سياسي، حيث نجح في إدارة دفة السفينة في بحر متلاطم، وكيف استطاع أن يكسب ود الدولة المنتدبة بريطانيا، وكانت ذروة سياسته الحكيمة ودبلوماسيته في أن تتوج جهوده في حصول الأردن على استقلاله العام ١٩٤٦م.

٥. ويعكس هذا المؤلف، وبشكل جلي، الجهود المضنية التي بذلت في بناء المؤسسات السياسية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية، والانتقال السلس من المؤسسات الإدارية الموروثة في أخريات العهد العثماني، إضافة إلى تأسيس للبنات الأولى

للمؤسسات الحديثة للدولة الأردنية، وإرساء قواعدها، على الرغم من محدودية الموارد المالية، وضآلة المنحة التي تقدمها الحكومة المنتدبة لدعم مالية الإمارة، وتوجيه معظمها خدمة لسياستها الاستعمارية، وضعف مساهمة القطاعات الإنتاجية الرئيسية، وما تعرضت له الإمارة من كوارث طبيعية متمثلة بالزلازل، وموجات الجفاف والقحط، والجراد، التي تناوبت على الإمارة خلال مرحلة التأسيس.

وفي الختام، إن هذه المحاولة الجريئة وغير المسبوقة، التي تصدت لها المؤرخة هند أبو الشعر، تطرح تساؤلات مهمة حول كتابة تاريخ الأردن، ونحن نحتفي هذا العام بمناسبة عزيزة، وهي المئوية الأولى للدولة الأردنية، فهل أفلحنا في كتابة تاريخ الأردن؟ وهل بذلت جهود كافية لتغطية جوانب هذا التاريخ؟ وهل أرخنا بشكل علمي وموضوعي لتطور النظم والمؤسسات؟ وهل أحسنا توظيف المادة الوثائقية؟ وهل قدمت مؤسسات الدولة ما هو منتظر منها لدعم الجهود العلمية الرصينة في التوثيق لتاريخ الأردن؟

إنني أتفق مع الدكتورة أبو الشعر بما خلصت إليه في إضاءتها إلى نتيجة مؤداها أننا بحاجة لإعادة كتابة تاريخ هذه المرحلة من تاريخنا الحديث، استنادًا إلى المصادر الجديدة التي تم الكشف عنها، وهو ما اجتهدت مشكورة للنهوض به، جزاها الله عن الأردن وقيادته وعن تاريخنا خير الجزاء.